الحزب الذى تنتظره مصر

بدون حزب ثورى ، سوف تظل الثورة المصرية تراوح مكانها ، تعجز عن التقدم ، وربما تنتكس ، وكما جرى من قبل بحكم جماعة الإخوان ، أو كما يتناوشها الآن خطر العودة لحكم جماعة مبارك ، أو ما يشبهه ، خاصة لو جرت الانتخابات البرلمانية المقبلة بالنظام الفردى الذى يهدر أصوات غالبية الناخبين ، ويعطى المجال واسعا لتأثيرات المال والبلطجة والعصبيات العائلية .

وفى كتابى (الأيام الأخيرة) ، والذى طبع عشرات المرات ، وصدرت طبعته الأولى فى يونيو ٢٠٠٨ ، كانت الصورة فى توقعاتى واضحة قاطعة ، قلت وقتها أن خلع مبارك وعائلته أمر مفروغ منه ، لكن خلع الرأس لا يعنى تغيير النظام فورا ، وتوقعت فوز "الإخوان" فى أول انتخابات تجرى بعد خلع مبارك، وبالنسبة التى فازوا بها فيما بعد بالضبط ، وقلت أن حكم الإخوان سيكون "القرين" لا "البديل" لحكم مبارك ، وأن الاختيارات الأساسية للنظام الذى تقوم الثورة عليه سوف تظل كما هى ، وبإيحاءات دينية سرعان ما يتكشف خداعها ، ودعوت وقتها إلى الحل الذى لا بديل بدونه ، وهو إنشاء حزب وطنى جامع ، يلعب فيه الناصريون بالذات دورا مؤسسا ، ويتقدم إلى المشهد فى صورة "الحزب الذى تنتظره مصر" ، وكبديل عن جماعة الإخوان التى وصفتها وقتها بأنها "الحزب الذى ينتظر مصر"، وفى التفاصيل ، وصفت وقتها الحزب المنتظر بأنه إلى اليسار وإلى الأمام معا ، إلى اليسار بالمعنى الاجتماعى ، وإلى الأمام بمعنى المقدرة على تلمس العناصر المشتركة بين مدارس الوطنية المصرية ، وقلت وقتها أن الحزب المنتظر ليس أيدلوجيا مغلقا ، ولا هو حزب للعلمنة مقابل التدين ، بل حزب للتجديد مقابل التقليد ، وبإيحاءات المثال التركى ، قلت وقتها أن مصر

وثورتها تنتظر حزبا للعدالة والتنمية فى الاتجاه المعاكس ، أى حزب من اليسار إلى الوسط ، وليس حزبا من اليمين إلى الوسط كما هو حال حزب رجب طيب أردوغان .

وبعد شهور قليلة من بدء السنة التى حكم فيها مرسى ، بدت الأزمة ظاهرة، فقد تبين للناس ما كان معلوما عندنا من السياسة بالضرورة ، وظهر حزب الإخوان على حقيقته كحزب للثورة المضادة ، فيما بدت الثورة مفتقدة لحزب كبير مؤثر يعبر عنها ، صحيح أن ثمة أحزابا صغيرة نشأت بعد الثورة ، وبدا بعضها بدرجة أو بأخرى قريبا من روح الثورة ، لكن علة النقص ظلت سارية ، فليس من حزب كبير مؤثر يصلح كعمود فقرى ناظم للحالة الثورية ، ويشد إليه ما سواه من الأحزاب والجماعات والحركات الأصغر وزنا وتأثيرا ، وبدا أن "التيار الشعبى" الذى أسسه المرشح الرئاسى السابق حمدين صباحى هو الأكثر تأهيلا للمهمة المطلوبة ، فلديه صلات تداخل منظورة مع جماعات اليسار الناصرى والماركسى ، ومع حركة "كفاية"، والتى نشأت من قلبها فيما بعد مبادرة حملة "تمرد" ، ومع عدد هائل من المبدعين والشخصيات العامة فى كافة المجالات ، لكن "التيار الشعبى" لم يعلن نفسه حزبا بعد ، وهذه هى المشكلة الجوهرية ، والتى حاولت مع غيرى تجاوزها بإقامة تحالف سياسى ثورى ثابت ، وعلى أساس من الفكرة العامة الهادية لصفات الحزب الثورى المطلوب فى ظروف مصر الراهنة ، وكادت المساعى تنجح ، وبلورت كيانا حمل اسم "ائتلاف الوطنية المصرية"، كان لى شرف صياغة بيانه التأسيسى الأول ، وضم الإئتلاف - إلى جانب "التيار الشعبى" - أحزاب اليسار وأحزاب الناصريين وحركة "كفاية" ، وامتد ليشمل أحزاب الليبرالية الاجتماعية كحزب "الدستور" و"الحزب المصرى الديمقراطى الاجتماعى" وحزب "مصر الحرية" ، وجرى اختيار الدكتور محمد غنيم - عالم مصر المرموق - منسقا عاما للائتلاف ، وما كاد يتم الإعلان الأول عن عملا لكيان الجديد ، حتى تدافعت الحوادث فى اتجاه

عاصف ، فقد أصدر مرسى إعلانه "الدستورى" المنكود فى ٢١ نوفمبر ٢٠١٢ ، واجتمعت دواعى الرفض على نطاق أوسع، وأجمعت فئات من اليمين مع الوسط واليسار على معارضة مرسى ، ولجأت مجددا إلى حركة الشارع ، وتكونت "جبهة الإنقاذ الوطنى" التى ذابت فيها أطراف "ائتلاف الوطنية المصرية" ، ثم نشأت بعدها بشهور حملة "تمرد" ، والتى انتهت إلى إطاحة مرسى فى ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣ ، والتى بدت كموجة ثالثة فى سيرة ثورة بدأت فى ٢٥ يناير ٢٠١١ ، لكن الصورة نفسها عادت للتكرار ، تقوم الثورة فلا تحكم ، وينتهى الحكم إلى "الأغيار" ، وكما ذهب الحكم لمجلس طنطاوى وعنان ثم إلى الإخوان بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ ، فقد ذهب الحكم بعد ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣ إلى إدارة رئاسية ووزارية هجينة ، ليست ثورية بالقطع ، ولا هى منتخبة بطبائع الأمور ، بل سلطة موقوتة إلى أن تجرى انتخابات البرلمان وانتخابات الرئاسة ، وعند الانتخابات ـ كما فى الامتحانات ـ تكرم الثورة أو تهان ، ونخشى ـ للأسف ـ أن تتكرر إهانة الثورة ، وأن تفوز فئة تشبه جماعة مبارك ، خاصة لو جرت انتخابات البرلمان بالنظام الفردى ، وقد يضاف إليها نفوذ مستجد لأحزاب اليمين الليبرالى فى جبهة الإنقاذ ، ومع وجود محسوس لأحزاب اليمين الدينى كالنور ، وربما "الإخوان" لو شاركوا ، بينما تنتهى جماعات وأحزاب الوسط واليسار إلى وضع الأيتام على موائد اللئام ، فقد انفكت رابطة "ائتلاف الوطنية المصرية" مع الذوبان السريع فى إطار "جبهة الإنقاذ" المختلط الطارئ ، والذى يتفكك الآن موضوعيا مع استنفاد المهمة المشتركة ، بينما ظلت الساحة خالية من حزب للثورة أو تحالف قادر على الفوز الحاسم انتخابيا ، ونقل الثورة إلى موضع السلطة ، وكسر ثنائية تناوب جماعة الإخوان وجماعة مبارك على الحكم ، وهى "الثنائية اللعينة" المفرغة التى لا يصح الحديث عن انتصار نهائى للثورة بدون كسرها ، والخروج من شرنقة التخلف والانحطاط التاريخى الذى آلت إليه أوضاع مصر خلال الأربعة عقود الأخيرة .

هذه الحالة من القابلية لانتكاس الثورة تفسر حيرة الجمهور المصرى ، والعودة لترديد سؤال " مصر رايحة على فين ؟ "، فقد لا يكترث غالب المصريين بمصير الإخوان، وقد نزلت شعبية الإخوان إلى أدنى حد ، وقد يعلق غالب المصريين أملهم على انتخاب الفريق عبد الفتاح السيسى رئيسا ، لكن رئاسة السيسى ، مع افتراض ترشحه ، ومع شعبيته الهائلة ، ومع إيحاءات عبد الناصر فيه ، مع كل هذه الميزات ، قد لا يكون انتخاب السيسى طوق نجاة مؤكد للثورة المغدورة ، فالأهم ـ عندنا ـ هو التغير فى مشهد السياسة ، وبصورة تجعله قريبا من مشهد الثورة ، والتناقض بين مشهد الثورة ومشهد السياسة هو معضلة مصر الآن ، وانتخاب السيسى مع برلمان يمينى ينتكس بالثورة ، ويزيد القلق الثورى فى الشارع مجددا ، ولا يستقر بالثورة عند شاطئ ختام ، والمطلوب : تغير جذرى فى مشهد السياسة ، وكنس ركام اليمين "الفلولى" والليبرالى والدينى معا ، وهذا اليمين ـ على اختلاف راياته ـ يكرر ذات اختيارات مبارك الجوهرية ، وهى : الولاء للأمريكيين ، وحفظ أمن إسرائيل ، ورعاية مصالح رأسمالية المحاسيب ، بينما المطلوب : إحلال اختيارات الثورة الجوهرية ، وهى : الاستقلال الوطنى والتصنيع الشامل والعدالة الاجتماعية ، وهو ما لن يتحقق ـ فى ظننا ـ بغير تحطيم معادلة "اليمين الفائض" و "اليسار الغائض" التى نكبت بها مصر ، وأول الطريق ـ عندنا ـ هو إعلان حزب قادر للثورة يضم إليه فى إطار مشترك أطياف وجماعات من القوميين واليساريين والليبراليين الاجتماعيين وشباب الثورة والإسلاميين فى حزب عبد المنعم أبو الفتوح ، وقد لايكون الطموح وارد التحقق بالسرعة المطلوبة ، وخصوصا مع اقتراب أجواء الانتخابات بمزايداتها ومناقصاتها ، لكن مالا يدرك كله لا يصح أن يترك جله ، والمهمة العاجلة ـ فيما نظن ـ أن يعلن "التيار الشعبى" نفسه حزبا سياسيا ، وأن يفتح الباب لاندماج من يشاء من أحزاب وكيانات فى بنيانه الوطنى الجامع ، وأن يكون مع حركة "كفاية" وحملة "تمرد" حلفا ثابتا وقائمة انتخابية موحدة ، وأن يجتذب إلى

التحالف الانتخابى أطياف "ائتلاف الوطنية المصرية" من اليسر والوسط ، وأن يعطى الأمل فى إمكانية انتصار الثورة عبر صناديق الانتخابات ، فافعلوها الآن من فضلكم ، وتعلموا الزرع بعد الخلع ، أو انتظروا ثورة "خلع" مقبلة قد لا تبقى ولا تذر.

"القدس العربى " فى ٤ من نوفمبر ٢٠١٣

obeikan.com